

الزمن في شعر ابن المعتز

د. هيثم محمد جدिताوي

أستاذ مساعد بجامعة أم القرى

الكلية الجامعية بالقفزة / المملكة العربية السعودية

البريد الإلكتروني: h.jdatawi@gmail.com

Time in the poetry of Ibn Mu'taz

Abstract:

This study attempts to trace the concept of time in the poetry of Ibn al-Mu'taz al-Abbasi in light of the cultural references of the Arab-Islamic civilization in his time, and deals with his varied perceptions and use of time in eye-catching binary antonyms.

One of the most important findings of this study is that Ibn al-Mu'taz, who seems to be traveling on the same time path that other pre-Islamic poets followed, didn't base his views on the nihilistic vision, which pre-Islamic communities embraced, that time has the ability to annihilate and destroy. Rather, they emanated from his own political, social and humanitarian experience and the disparity between his ambition and his reality.

Through investigating this phenomenon in Ibn al-Mu'taz's poetry, the researches concludes that Ibn al-Mu'taz was a true Muslim who believed in Allah and his faith tended to strengthen and weaken like many other Muslims. However, his belief was not solid enough to enable him to reconcile with this fateful dilemma.

Keywords: Ibn Mu'taz, Abbasid poetry, time, time indefinite

المخلص:

ترصد هذه الدراسة ظاهرة الزمن في شعر ابن المعتز العباسي في ضوء المرجعيات الثقافية للحضارة العربية الإسلامية في عصره، وتناولت مواقفه المتنوعة من الدهر بتنوع أحواله وردود أفعاله تجاهها، في ثنائيات ضدية لافتة.

ومن أهم النتائج التي خلصت إليها هذه الدراسة أن ابن المعتز -الذي يبدو سائرا على النسق الزمني الذي ساد في الشعر الجاهلي- لم ينطلق في مواقفه المختلفة من الزمن من رؤية عدمية تحيل على القدرة الفاعلة للزمن على الإفناء والإهلاك كما كان الجاهليون يعتقدون، إنما تنبع من تجربته السياسية والاجتماعية والإنسانية والتباين بين طموحه وواقعه أكثر مما تحيل على نزعة قدرية تتحکم في المصائر؛ إذ ظهر للباحث من خلال استقصاء هذه الظاهرة في شعره أنه مسلم صحيح العقيدة مؤمن بقضاء الله وقدره، وإن كان إيمانه يقوى ويضعف كحال كثير من المسلمين، وعقيدته ليست من الرسوخ بما يكفي لتجعله متصالحا مع هذه الإشكالية المصيرية.

الكلمات المفتاحية: ابن المعتز، الشعر العباسي،

الزمن، الدهر.

توطئة:

لعلّ أبا حيان التوحيديّ لم يجانبه الصواب حين وصف الخوض في مشكلة الزمن وأسئلته بقوله: "هذا أيّدك الله فنّ ينشّف الريق، ويُضرع الخد، ويجيش النفس، وبقيّ المبطان، ويفضح المدّعي، ويبعث على الاعتراف بالتقصير والعجز، ويدل على توحيد من هو محيط بهذه الغوامض والحقائق، ويبعث على عبادة من هو عالم بهذه السرائر والدقائق، وينهى عن التحكّم والتهانف، ويأمر بالتناصف والتواصف، ويبين أن العلم بحر، وفئت الناس منه أكثر من مدركه، ومجهوله أضعاف معلومه، وظنّه أكثر من يقينه، والخافي عليه أكثر من البادي، وما يتوهمه فوق ما يتحقّقه"⁽¹⁾، فالخوض في هذه الإشكاليّة قديم قدم الفكر الإنسانيّ بل ربّما وجود الإنسان نفسه على هذه الأرض، وقد تعددت زوايا الاشتغال بمفهوم الزمن وقضاياها وإشكاليّاته وتطور مفهومه عبر التاريخ، وخاض غماره المفكرون والفلاسفة والعلماء والأدباء واللغويّون على اختلاف أجناسهم وعصورهم ومشاربهم وعقائدهم، وتركوا لنا إرثاً كبيراً ما يزال موضع جدل إلى يومنا هذا في أوساط المشتغلين بهذه الإشكاليّة المصيريّة.

وقد عنيت مئات الدراسات العربية المعاصرة - أسوة بغيرها في مشارق الأرض ومغاربها- بدراسة الزمن من زوايا متعددة؛ لغويّة ودينيّة وفلسفيّة وعلميّة وأدبيّة، بعنوانين مفردة أو فصول من كتب أو دراسات في مجلّات علميّة محكمة أو رسائل وأطروحات جامعيّة، وهي أكثر من أن تحصى في هذا الموضع، ولعلّ من أهمّها فيما يختصّ بتناول هذه الظاهرة في الشعر عامة: زمان الشعر لأدونيس⁽²⁾، والشعر والزمن لجلال الخياط⁽³⁾، وقمصان الزمن لجمال الدين الخضير⁽⁴⁾. أما ما يتصل منها اتصالاً وثيقاً بشعرنا العربيّ القديم فيمكن الإشارة - على سبيل المثال لا الحصر- إلى: الزمن عند الشّعراء العرب قبل الإسلام لعبد الإله الصايغ⁽⁵⁾، والزمن

في شعر الشعراء العذريين في العصر الأمويّ لأمل نصير⁽⁶⁾، وظاهرة الزمن في الشعر العربيّ القديم لنضال الأميونيّ دكاش (عند بشّار وأبي نواس نموذجًا)⁽⁷⁾، والدهر في الشعر الأندلسي للّوي خليل⁽⁸⁾.

ومن الدراسات النقديّة التي أولت اهتمامًا خاصًا بالزمن في الشعر العربيّ الحديث: شعرنا العربيّ المعاصر والزمن المضاد لعبد السلام المسديّ⁽⁹⁾، وجدليّة الزمن (دراسة نقديّة في قصيدة أحمد عبد المعطي حجازي) لبسام قطّوس⁽¹⁰⁾، والزمن في الشعر العراقي المعاصر (مرحلة الرّواد) لسلام كاظم الأوسيّ⁽¹¹⁾.

وتسعى هذه الدّراسة إلى إضافة حلقة جديدة في سلسلة الدراسات الزمنيّة المتعلقة بشعرنا العربيّ من خلال تسليط الضوء على أبعاد هذه الظاهرة في شعر ابن المعتز العبّاسيّ في ضوء المرجعيّات الثقافيّة للحضارة العربيّة الإسلاميّة في عصره؛ إذ بدا أن الزمن هو السؤال المؤرّق الأول في ديوانه، فلا يكاد غرض من أغراض شعره في ديوانه الكبير⁽¹²⁾ -الذي يتجاوز ألف صفحة- يخلو من حديثه عن الزمان أو الدهر وتعالقهما، وهي من الكثرة بحيث تغني الباحث عن تناول مفردات أخرى لبيان فلسفة الزمن في شعره.

وقد وقع في ظن الباحث -ابتداء- أنّهما بمعنى واحد، لكن بعد فحص السياقات المتعددة في الأبيات التي وردت فيهما هاتان المفردتان لاحظ أنّهما نوع في دلالاتهما اللغويّة مما يتطلّب معه توضيح معناه ودلالاتهما المتعدّدة في شعره قبل الانطلاق لدراسة الأبعاد التي تحركت فيها علاقته بالزمن وموقفه منه، وقد استخدم الباحث مفردة (الزمن) في العرض والتحليل للدلالة على الزمان والدهر؛ أحدهما أو كليهما.

1- الهوية اللغوية للزمن في شعر ابن المعتز:

تكاد معاجم اللغة تتفق على أن الزمن والزمان اسم لقليل الوقت وكثيره، والجمع أ زمن وأزمان وأزمنة، وأزمن الشيء: طال عليه الزمن، وأزمن بالمكان أقام به زمناً⁽¹³⁾، لكنّ علماء اللغة اختلفوا في معنى الدهر، فمنهم من قال: الدهر والزمان واحد⁽¹⁴⁾، وذهب أبو الهيثم إلى أن ثمة فرق بين الزمان والدهر، فالزمان عنده زمان الرطب والفاكهة وزمان الحر والبرد، وتكون مدته من شهرين إلى ستة أشهر، أما الدهر فلا ينقطع، وقال أبو منصور: الدهر عند العرب يقع على وقت الزمان من الأزمنة وعلى مدة الدنيا كلها، والزمان يقع على الفصل من فصول السنة وعلى مدة ولاية الرجل وما أشبهه⁽¹⁵⁾.

أما أبو هلال العسكري -من خلال تفريقه بين الدهر والمدة- فيشير إلى تعريف الدهر بقوله: "الدهر جمع أوقات متوالية مختلفة كانت أو غير مختلفة، ولهذا يقال: الشتاء مدة، ولا يقال دهر، لتساوي أوقاته في برد الهواء وغير ذلك من صفاته، ويقال للسنين دهر لأن أوقاتها مختلفة في الحر والبرد وغير ذلك"⁽¹⁶⁾، في حين أن الزمان المفارق للمدة يقع على كل جمع من الأوقات لكن أجله أقصر من أجل المدة⁽¹⁷⁾، كما أن الزمان مقارنة بالوقت "أوقات متوالية مختلفة أو غير مختلفة، والوقت واحد، وهو المقدر بالحركة الواحدة من حركات الفلك، وهو يجري من الزمان مجرى الجزء من الجسم"⁽¹⁸⁾.

وأما الطبري -معاصر ابن المعتز وصديقه- فيعرّف الزمان بقوله: "هو ساعات الليل والنهار، وقد يقال ذلك للطويل من المدة والقصير منها، والعرب تقول: أتيتك زمان الحجاج أمير وزمن الحجاج أمير-تعني به: إذ الحجاج أمير.. ويقولون أيضاً أتيتك أزمان الحجاج أمير، فيجمعون الزمان، يريدون بذلك أن يجعلوا كل وقت من أوقات زمانه زماناً من الأزمنة"⁽¹⁹⁾.

وتوسّع بعض علماء اللغة في تعريف الدهر؛ إذ يعرفه ابن سيدة بقوله: "الدهر: مدة بقاء الدنيا إلى انقضائها"⁽²⁰⁾، وقال الأزهري في تهذيبه: "الدهر عند العرب يقع على بعض الدهر الأطول، ويقع على مدة الدنيا كلها"⁽²¹⁾، وأشار صاحب الكليات إلى أن "الدهر هو في الأصل اسم لمدة العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه، ويستعار للعادة الباقية ومدة الحياة"⁽²²⁾.

ويحيل استخدام الدهر في سياقاته المختلفة إلى معانٍ متعددة، فقد يأتي بمعنى الغلبة والقهر⁽²³⁾، أو بمعنى النازلة⁽²⁴⁾، وقد يأتي بمعنى العادة أو الهمة والغاية⁽²⁵⁾.

1-1 الزمان والزمن:

ذكر ابن المعتز الزمان والزمن في شعره معرفة ونكرة، وجمعه على أزمان في موضع واحد فقط، وذلك في قوله⁽²⁶⁾:

أزمانَ أمرُح في عنانٍ صبيٍّ أجري إلى لهوي ولست أردُّ

وجاء الزمان أو الزمن منعوتاً في مثل قوله: "الزمان الصعب" و"الزمان البكي" و"الزمان العثور"، أو مضافاً إلى اسم أو ضمير في مثل قوله: "زمن الصبا" و"زمانني"، كما جعل للزمان ماثلاً من جسد الإنسان ومستلزماته كاليد والعين والفؤاد والحلية، واشتكى كثيراً من حوادث الزمان وخُلّقه وسوطه وريبه وجرمه، وجعله أطواراً، وأشار إلى زمن الصبا وعود الزمان الرّطيب.

وقد استخدم الشاعر الزمان بمعنى قليل الوقت، ومن ذلك قوله في الإشارة إلى مرحلة عمرية بعينها؛ هي مرحلة الصبا أو أول الشباب⁽²⁷⁾:

من كلّ عيشٍ قد أصبَّ ثُ لذيذَه وسلكتُ نحواً
زمن الصّبا وُرِدْتُ كسَّ فأبعده وقصّرتُ خطوا

وفي مواضع أخرى جاء الزمان بمعنى حقبة زمنية محدّدة، ومن ذلك قوله⁽²⁸⁾
واصفًا إخوان عصره:

بلوث إخوانَ هذا الزمانِ فأقللتُ بالهجر منهم نصيبي
وفي إشارة له إلى العصر الأمويّ يقول⁽²⁹⁾:

زمان بنو حرب ومروان ممسكو⁽³⁰⁾ أعنةٌ مُلِّكٍ جابرِ الحُكْمِ غاصِبِ
كما جاء الزمان في شعره دالًّا على الوقت الطويل في بعض المواضع، ومنها قوله⁽³¹⁾:
تخبركم عن زمنٍ لم يزلْ يجدُ بالقوم وهم يلعبونْ

وخرج ابن المعتز عن المعنى اللغويّ للزمان وخلع عليه صفة الديمومة والاستمرار أو العادة الباقية الملازمة للدهر في أكثر من شاهد، ومثال ذلك قوله⁽³²⁾:

يَلْتَحِيهِ الزمانُ في كل يومٍ دائبًا كالتحاء غصن نضير

كما أسند إلى الزمان عددًا من الأفعال الدالة على القهر والغلبة والنازلة، ممّا يجعله بمعنى الدهر في تلك السياقات، فهو يفتك ويثب ويحتل وبلد الخطوب ويفجع ويفرق ويسطو ويسيء وما إلى ذلك، ثمّ ينجو سليما، ومثال ذلك قوله⁽³³⁾:

لهفي على صرفِ الزمان وما جنى أودى به ونجا الزمانُ سليما

1-2 الدهر:

توسّع ابن المعتز في استخدام كلمة الدهر معرفة ونكرة، وأكثر من إيرادها نكرة في سياق النداء خاصة، وجمعها على دهور في موضع واحد فقط لعل القافية اقتضته، وذلك في قوله⁽³⁴⁾:

ذاك ما سنّه عليّ عليه رحمةُ الله في قديم الدّهور

والدهر عنده منعوت بكلّ ما هو سلبيّ، فهو دهر عارم جم العجائب،
ودهر موات، ودهر مريد، ودهر عارم الشر باهظ، ودهر غافل، ودهر أبله. وخصّبه
من أعضاء جسد الإنسان باليد والفم، وأضافه إلى ضمائر مختلفة (دهري، دهرنا،
دهرك، دهره، دهركم)، واشتكى في غير موضع من بني الدهر وعشرائه وأعوانه،
وحدثنا عن حوادثه وخطوبه وصروفه وقوارعه وتجاربه، وقلّمَا ذكر شيئاً عن حسناته
أو نعيمه.

ويحافظ ابن المعتز في استخدامه للدهر على المدلولات الزمنية والمجازية
المشار إليها سابقاً عند عدد من اللغويين، فقد استخدمه بمعنى الطول أو مدة بقاء
الدنيا في كلّ المواضع، ومن ذلك قوله في مدح المعتضد بالله⁽³⁵⁾:

وكنّ مع الدهر — دهرًا — عمرُ كما مثَّلان

وقوله⁽³⁶⁾:

أما ترى الدهر لا تفنى عجائبه — والدهرُ يمزجُ معسورًا بميسور

ولم يخرج عن أحد هذين المدلولين إلا في موضع واحد فقط جاء بمعنى الزمن
القصير، وذلك في إحدى قصائده الطرديات التي بدأها بقوله⁽³⁷⁾:

لهفي على دهر الصبيّ القصير — وغصنه ذي الورق المنثور

وهذه الدلالة على القليل في معنى الدهر من باب المجاز والتوسع في
الاستخدام كما يرى الزبيدي⁽³⁸⁾.

واقترن الدهر في أغلب قصائده بمعانيه المجازية مثل الغلبة والقهر والنزلة
والشدة وما إلى ذلك، وأثرها في الناس عامّة وفي حياته خاصة، ومثاله⁽³⁹⁾:

يا دهرُ يا دهرُ يا أبا العجب
يا خائناً عند أمني صاحبه
يا طارقاً بالهموم والكرب
ويا مغصّ الرضيع بالخلب
وقوله⁽⁴⁰⁾:

فرّق الدهرُ بين صدري وقلبي
عند تفريق صرّفه أصحابي

2- التصور العقدي للزمن في شعره:

تشكّل التصورات والأفكار التي يمتلكها الإنسان أساساً ومنطلقاً يبني عليه مواقفه وردود أفعاله تجاه العالم والحياة من حوله، وتأتي التصورات من مصادر متعددة، منها: الدين الذي يؤمن به الإنسان، وخبرته الخاصة، والمرجعيات الثقافية في عصره، وما استقر في الوعي الجمعي والمخيال⁽⁴¹⁾ عبر تاريخ جنسه البشري بوصفه جزءاً لا يتجزأ منه.

ولذلك أثر الباحث إلقاء ضوء سريع على مفهوم الزمن في الإسلام في ضوء الكتاب والسنة، والوقوف -بعمالة- على أبرز مذاهب المتكلمين في هذه الإشكالية المصيرية حتى القرن الثالث فقط؛ العصر الذي عاش فيه الشاعر، وربما يكون قد اطلع عليها وتأثر بها بصورة أو أخرى، ومفهوم الزمن عند عرب الجاهلية الذين ينتمي إليهم الشاعر بنسبه، وورث الكثير منهم.

2-1 الزمن في الكتاب والسنة:

عنيت الكثير من الدراسات المعاصرة بتناول مفهوم الزمن في القرآن الكريم⁽⁴²⁾، مع أن لفظة "الزمن" لم ترد مطلقاً فيه، وإنما ذكر الدهر في موضعين فقط؛ في قوله تعالى: "وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ" (الجنّة/24)، وقوله تعالى:

"هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا" (الإنسان/1)، إلا أن مفردات أخرى تحيل على الزمن (حين، أمد، أزل، سنين، يوم، ليل، نهار، إلخ...) وردت في ثلثي سور القرآن الكريم تقريباً⁽⁴³⁾. وينقسم الزمن في المنظور القرآنيّ إلى قسمين؛ أولهما دار الدنيا الفانية، وثانيهما دار الآخرة الخالدة، وجعل عالم البرزخ تبعاً للثاني منهما.

أما في السنة النبوية فما برح النبي ﷺ يؤكد ويوضح ما جاء به القرآن الكريم حول هذا الفهم الجديد للزمن، وفي الحديث القدسيّ: "قال الله عز وجل: يؤذني ابن آدم، يسبّ الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلّب الليل والنهار"⁽⁴⁴⁾ كما روي عنه ﷺ أنه قال: "لا تسمّوا العنب الكرم، ولا تقولوا خيبة الدهر، فإن الله هو الدهر"⁽⁴⁵⁾.

2-2 الزمن في عقائد المتكلمين:⁽⁴⁶⁾

خاض المتكلّمون - حتى عصر ابن المعتز المتوفى 296هـ- في هذه الإشكاليّة، وكانت اجتهادات أشهر المذاهب آنذاك؛ الأشاعرة والمعتزلة تتعلق بثلاثة أمور، أوجزها الجابريّ بقوله: "أولها: أنهم تصوّروا الزمان مؤلّفاً من أجزاء صغيرة منفصلة متعاقبة لا تقبل القسمة، ومن هنا قولهم: العرض لا يبقى زمانين، وهكذا فكما تتجدد الأعراض باستمرار تتجدد آفات الزمان باستمرار كذلك. ثانيها: أنهم ربطوا بين الزمن والمتزّمن فيه، مثلما ربطوا بين المكان والتمكّن فيه، وبعبارة أخرى هم لا يتصوّرون المكان ولا الزمان مستقلّين عن محتوياتهما، بل يربطون بين الشيء ومكانه وزمانه ويجعلون من ذلك وحدة واحدة. ثالثها: أنهم نظّروا إلى الزمان من حيث وظيفته أي من حيث هو تقدير الحوادث بعضها بعضاً، ولكن دون أن يعني ذلك استقلال الزمن عن الحدث، بل يجب عندهم أن يكون الوقت والمؤقت جميعاً حادثين، لأن معتبرهما بالحدث لا غير"⁽⁴⁷⁾.

أما الكنديّ (ت250هـ)، الذي خاض في هذه المسألة، فقد نُسب إليه كتاب في "ماهية الزمان والحين والدهر" لكنه مفقود، وملخص فلسفته أن الزمان: "مدّة تعدّها الحركة، غير ثابتة الأجزاء"، وأما معاصره الجاحظ (ت255هـ) فكان - كما تذكر دائرة المعارف الإسلاميّة - أول من حدّد معنى كلمة "دهريّة"، ووصفهم بأنهم: "هم الذين ينكرون الخالق، ولا يؤمنون بالنبوّات أو البعث أو الثواب والعقاب، ويردّون الأشياء إلى فعل الأفلاك، ولا يعرفون خيراً ولا شراً سوى المنفعة واللذة" (48).

2-3 الزمن في الوعي الجمعي العربي قبل الإسلام:

يكاد عرب الجاهليّة يشكّلون حالة فريدة من نوعها في تصورهم لمعنى الحياة والموت، وعدم إيمانهم بوجود حياة أخرى بعد الموت، وأن هذا الكون مصيره إلى الفناء أو العدم ولا شيء بعد ذلك، ولم ينبج من هذا الاعتقاد سوى زمرة قليلة من الأحناف أو من تبقى من أتباع الديانتين اليهوديّة والنصرانيّة.

وقد استخدم شعراء الجاهليّة كلمة الدهر - بصور خاصة - للدلالة على مجريات حوادث الكون وتصرف الأقدار، ولكن هذه الكلمة عندهم "لم تكن تدل على قوة شخصيّة، بل على قوة غير شخصيّة تتصرف في الأشياء وفي الناس، وهي ليست قوة إلهيّة ولا مقدسة، بل تتصرف تصرفاً غاشماً من غير مراعاة قاعدة، وليس في عملها حكمة" (49).

2-4 الزمن في عقيدة ابن المعتز:

مع كل ما تشير إليه المصادر من ثقافة ابن المعتز وسعة اطلاعه المرتكزة على أساس إسلاميّ والمنفتحة على مختلف الثقافات في عصره، إلا أنه لم يفارق في تصوره للزمن الرؤية التي سادت عند الشعراء العرب قبل الإسلام في جلّ السياقات؛

تلك الرؤية العدمية بنزعتها التشاؤمية، وبكل ما يحيط بها من مشاعر سلبية، وما تحمله للإنسان من معاني التغيير والسلب والشر والتفريق والفناء، وما ينطوي عليه الزمن/ الدهر خاصّة من قوة فاعلة في ذاته أبداً، تسحق الإنسان وتودي به إلى موته المحتوم، ومن ذلك قوله⁽⁵⁰⁾:

وإني رأيتُ الدهرَ في كل ساعةٍ يسيرُ بنَفْسِ المرءِ والمرءُ جالسٌ
وتقتاده الآمالُ حتى تحطُّه إلى تربةٍ فيها النفوسُ فرائسُ

ولا يملكُ أمامه سوى الاستسلام لحكمه⁽⁵¹⁾:

رويدك إنّ الدهرَ ما قد علّمته وليس لنا من حُكمه كلّ ما نرضى
أرى الدهرَ يقضي كيف شاء محكّماً ولا يملكُ الإنسانُ بسطاً ولا قبضاً
أو ذمه وهجائه⁽⁵²⁾:

فَجَعَ الزمانُ بسيدٍ فأماته تَعَسَ الزمانُ وإنه للئيم
تَعَسَ الزمانُ فقد بكاني فعلُهُ ورمى بسهمٍ فاجعٍ لنعيم

إلا أنه يشعر في قرارة نفسه أن موقفه هذا قد يتعارض مع مقتضيات الإيمان بقضاء الله وقدره عند كل مسلم، فنراه يدافع عن نفسه، ويقرّ أن موقفه من الزمن لا يعني اعتراضه على إرادة الخالق عز وجل⁽⁵³⁾:

حمداً لربّي وذمّاً للزمان فما أقلّ في هذه الدنيا مسرّاتي

ويستدرك في موضع آخر⁽⁵⁴⁾:

ألست ترى يا صاحٍ ما أعجب الدهرُ فذمّاً له لكنّ للخالقِ الشكرُ

ويبدو أكثر وضوحًا في تأكيد إيمانه بقضاء الله وقدره في مطلع دليته في رثاء المعتضد، وفيها يقول (55):

يا دهرٌ ويحك ما أبقيت لي أحدا وأنت والدٌ سوء تأكلُ الولدا
أستغفرُ الله بل ذا كلُّه قدرٌ رضيتُ بالله ربًّا واحدًا صمدا

إلا أن هذه الشواهد لا يمكن التعويل عليها للقول إن ثمة رؤية عقدية إسلامية مطمئنة راسخة لمفهوم الزمن لديه، وقادرة على جعله متصالحًا مع هذه الإشكالية المصيرية، ولا سيما أنها نزرة في ديوانه المطوّل، وفي غرض الزهد والحكمة تحديدًا، ومعتقدات الإنسان تظهر فيما تكرّر من أقواله وأفعاله، لا بالنزر اليسير منهما.

ومن نافلة القول إن الإسلام أحدث تحولات إنسانية كبرى، وأقرّ وبدّل وأثبت وغير في كثير من المفاهيم الإنسانية في الشعر والحياة على حد سواء، لكن الشعراء بعد انقضاء عصر صدر الإسلام عادوا إلى كثير مما نهوا عنه؛ من عصبية قبلية ووصف للخمرة وتغزل وهجاء فاحش وسوى ذلك من الأفكار والأفعال المنهي عنها شرعًا، وما ذلك إلا لضعف إيمانهم وعدم التزامهم بتعاليم الدين الحنيف، لا بسبب مؤثرات فكرية وفلسفية معينة، وخير مثال على ذلك أن جلّ شعراء الخمريات كتبوا الممخّصات في أخريات حياتهم لما أحسوا بدنو الأجل، وأيقنوا أنهم محاسبون على هيامهم في كلّ وادٍ محظور، وما فعلوا ذلك إلا طمعًا في مغفرة الله ورضوانه.

3- موقف الشاعر من الزمن:

إن الباحث المدقّق في شعر ابن المعتز سيلاحظ أن موقفه من الزمن لم يأت على وتيرة واحدة، إنما هو متغيّر بتغيّر أحواله؛ إذ غالبًا ما يعيش في صراع مع الزمن حتى لتكاد المواجهة بينهما تتحوّل إلى ساحة حرب؛ يغالبه الشاعر فيغلب كثيرًا

ويَغلب قليلاً، وفي بعض السياقات نجده يعيش في هدنة مع الزمان أشبه ما تكون باستراحة المحارب الذي يلحق جراحه ثم يعود للمعركة من جديد، لكن قوة خصمه تحتم عليه الاستسلام في النهاية.

ويعي الشاعر القوة الضاغطة التي يشكلها الزمن على الإنسان ومكانه وجميع متعلقاته؛ إذ يُغيّر على كل شيء، فيبدله ويغيّره ويهدمه ويمحوه، حتى يصل كل شيء إلى مصيره المحتوم في النهاية، لكن ابن المعتز يسعى إلى التفوّت من هذا المصير أو إرجائه قليلاً، وإن كان يعي في قرارة نفسه أن لا هروب من الفناء.

كما تنوّعت رود أفعاله تجاه حوادث الزمان وخطوبه ونوائبه وتغوّل الدهر على كل تفاصيل حياته، فنراه يميل إلى الشكوى والتذمر في معظم أوقاته، ثم ينقلب إلى حال من التصرّب والتجلّد أحياناً، أو يتعالى على خساراته وهزائمه المتلاحقة بحثاً عما يسكّن قلقه، وإن كان يحلو له أحياناً أن يهرب من كل ذلك إلى لحظات يميّ نفسه أنه قد انتصر عليه ولو آتياً.

3-1 بين الصراع والمهادنة:

يذهب عبد المنعم تليمة إلى أن "الصراع قانون أساسي من قوانين الكون والمجتمع والحياة الإنسانية. ويتخذ الصراع شكلاً خاصاً في كل طور من أطوار التطور في علاقة الإنسان بعالمه الطبيعي والاجتماعي"⁽⁵⁶⁾، وقد يتصاعد الصراع بين المبدع وتلك القوانين عمودياً عند مواجهة الحرّية البشرية للإرادة الإلهية، أو يسير أفقياً إذا كان الصراع مع القوى الاجتماعية، أو يكون ديناميكياً في حال المواجهة البشرية العفوية مع القدر، وقد يدخل في صراع داخلي مع نفسه إذا شعر بالوجود بصورة عدائية⁽⁵⁷⁾.

إلا أن صراع ابن المعتز مع الزمن لم يكن صراعاً وجودياً - بالمعنى الفلسفي للوجودية⁽⁵⁸⁾ - بمقدار ما كان بسبب محيطه السياسي والاجتماعي من ناحية، وتقدمه في السن من ناحية أخرى، فهو سليل الأسرة العباسية التي ذقت من الخيانات والخذلان ما ذقت، فجده المتوكل كان أول خليفة يقتل على يد كبار رجالات جيشه، ووالده المعتز لم يعدد خليفة يمثل ما عذّب به على صغر سنه، وذاق ابن المعتز نفسه من غدر الأتراك ومكرهم وتآمرهم عند وفاة المكتفي وأخذهم البيعة لولده جعفر دونه ما ذاق، فلما ارتأى عقلاء القوم أخذ البيعة له، تأمر أعداؤه عليه، فقتلوه هو وكبار مبايعيه بعد أن تخلّى عنه قائد جيشه وأقرب أصحابه إليه؛ الطبري والصولي⁽⁵⁹⁾.

كلّ تلك التجارب القاسية أثّرت في نفس الشاعر، وجعلته يعيش في صراع وعداء مع الزمن؛ إذ رأى قومه ذلّوا بعد عزّ، وهلكوا بعد أن ملكوا، والدهر هو الذي غالبهم فغلبهم بعد أن كان لهم تبعاً، وفي ذلك يقول⁽⁶⁰⁾:

ملك الدهر علينا أمره	ولقد كان لما نهوى تبع
ذاك إذ قومي لا أنكرهم	وهم هم لم يدنسهم طبع
ولهم أوتاد ملك قاهر	طيع للأرض ما شاء صنع
فاغر فاه إلى أعدائه	كل من صعر خدي ابتلع
ثم هم كالثوب أعيا تاركا	لو رأى فيه مصحاً لرقع

كما كان لفقد الشاعر عددًا من إخوانه المقربين أثر في تأجيج الصراع بينه وبين الزمن الغادر المخادع الماكر⁽⁶¹⁾:

إخوة لي غدر الدهر بهم	خلفوني بضمير موجع
فرغ الدهر لهم من شغله	وحواهم بيد لم تدفع

ولقد عافاهم ثم سرى لهم والدهر جُم الخُدع
إنما استوفت يداه سهمه ورمى غرة صيد يرتعي

وفي البيت الأخير يبدو الشاعر واعياً بأن الزمن يسير باتجاه واحد لا رجعة فيه من خلال تشبيه حركته بالسهم المنطلق الذي لا يمكن له العودة إلى كنانته أبداً؛ إذ يجب أن ينطلق إلى الأمام والأمام فقط سواء أصاب هدفه أو أخطأه⁽⁶²⁾.

وبعد أن يؤكد الشاعر أن الزمن قد نال من أصحابه، تصل المواجهة بينهما إلى قمة التأزم بعد أن شعر بأنه لم يُبقِ له من الأصحاب والأحباب أحداً، ولم يعد ثمة ما يحسره، فيقف هازئاً منتظراً المزيد من ضرباته الموجعة⁽⁶³⁾:

يا خطوط الدهر ما شئت اصنعي ومن الآن بما شئت فـعـي
فلقد أبقيت عندي غصبةً ما على مهلكهم من مجزع
ويصوّر لنا في غير موضع قوة ضربات الدهر الموجعة وأسلحته القويّة التي لا تبارى⁽⁶⁴⁾:

وردّ عليّ الدهرُ حـدّ سلاحه فقطّعتني جرحاً وأوجعني عضاً
لكنه يحاول التمرد أحياناً على هذا الخصم الشرس، مغتبراً بعنفوان شبابه، يقف أمامه متحدّياً⁽⁶⁵⁾:

إذا أنا لم أجزِ الزمـانَ بفعله تقلّب مني الدهرُ في جانبٍ سهلٍ
عرضتُ فلا أعطي الحوادث طاعةً وليس يطيع الحادثات فتى مثلي

أو يلوذ بمن له تمكين وسلطان يردّ عنه يد الزمان وفمه، وفي هذا المعنى يقول في الوزير أبي القاسم بن عبيد الله مادحاً⁽⁶⁶⁾:

كلا أليست تقيني للزمان يدُ لقاسم ذات عزٍّ وسلطانٍ
الزاجرِ الدهرَ عني إذا سخا فمه ومدَّ كفيهِ في ظلمٍ وعدوانٍ

إلا أن الزمن لم يكن دائماً طرف صراع مباشر مع الشاعر، فهو أحياناً يذكّي نار الحرب، ويقف متفرّجاً على أطراف الصراع يفني بعضها بعضاً⁽⁶⁷⁾:

رأيتُ الدهرَ ينقُضُ كلَّ يومٍ قُوى حبل البقاءِ وكلَّ عامٍ
يُقَتِّلُ بعضنا بأَكْفٍ بعضٍ يشحذُ بيننا سيفَ الحِمامِ

لكن عمر الشاعر لم يكن خسائر متلاحقة فحسب، فثمة "حسنيات دهر قد مضين لذيدة"⁽⁶⁸⁾، وثمة زمان استكان لما رأى من قوّة قومه وبأسهم، قبل أن يفتك بهم ويسلمهم إلى موتهم المحتوم⁽⁶⁹⁾:

كانوا إذا ما غضبوا غضبةً فليس منعٌ دونَ ما يطلبونُ
وهزّت الأرضُ بهم هزّةً وخشعَ الدهرُ برُكنٍ مهينُ
ولم تذقْ أجفائهم رقدةً فالיום صاروا ثقالَ الجفونِ

وثمة زمان ذاق فيه طعم الانتصار على الزمن⁽⁷⁰⁾:

شرطَ الدهرُ لنا غيراً حين عادينه أصحاباً
وحلبتُ الدهرَ أشطره وقضتُ نفسي أطراباً

وثمة زمان أرخى له عنانه أول شبابه، فنراه جذلان مرحاً⁽⁷¹⁾:

أزمانَ أمّحُ في عنانٍ صبيٍّ أجري إلى لهوي ولستُ أُرَدُّ

زمان تلذّد فيه بطعم النصر كما تجرّع مرارات الهزيمة حتى خبره وعرفه وغفر سيئاته بحسناته⁽⁷²⁾:

لا تَجْزِينِي واسأليني إِنِّي عاركْتُ هذا الدهرَ أيَّ عراكٍ
ولقد أصابني الزمانُ ببؤسِهِ ونعيمِهِ وغفرتُ أذاكَ بذاكَ

لحظات مختلصة نام الدهر عنه فيها؛ إذ أقبلت عليه الحياة، فعبت منها عباً،
قبل أن يدير الزمن عليه وعلى قومه وإخوانه رحى الحرب من جديد كعادته⁽⁷³⁾:

والدهرُ من أخلاقِهِ استرَّ جاعٌ ما قد سلفا
والدهر "الأم غالب ظفراً"⁽⁷⁴⁾.

2-3 بين التأثير والتأثر:

أصغى ابن المعتز إلى إيقاع الزمن، وانتبه إلى ما يملكه من قوة تأثير سلبية على كل شيء؛ ابتداء به وبغيره من البشر، مروراً بمكانه، وانتهاء بكل متعلقاته؛ جميعها تسير نحو مصير واحد؛ الفناء ولا شيء غيره، لكن السير نحو هذا المصير قد يكون سريعاً أو بطيئاً، وفقاً لوعي الشاعر وارتحانه لهذه اللحظة الزمنية أو تلك، لا حقيقة حركة الزمن في المكان منفصلة عنه؛ أي إن الزمن عنده - كما يقول كانط - ما هو إلا: "الصورة المميزة لخبرتنا، إنه أعم وأشمل من المسافة (المكان) لعلاقته بالعالم الداخلي للانطباعات والانفعالات والأفكار التي لا يمكن أن نضفي عليها نظاماً مكانياً"⁽⁷⁵⁾.

وكثيراً ما يلحّ الشاعر على أثر الزمن وحوادثه ونوائبه على الناس، وكأنيّه الموكل بصناعة تاريخهم؛ إذ يسطو عليهم ويغير من خلال ثنائية ضدية حادة تتشكل معها المآلات والمصائر، فيبدّل النعيم بؤساً والغنى فقراً والعزّ ذلاً، أو يقلب موازين الحق والعدل، فيشقى أديب ويسعد جاهل، ويبقى لقيم ويمضي صديق، أو يسير على جسد الإنسان وأحلامه وأمانيه ورغباته سيراً بطيئاً متمهلاً؛ يكسرها إذ قويت،

ويضيّقها إن اتّسعت، ويشتّت شملها إذا تجمّعت، يلتحيها دائبًا لا يكلّ ولا يملّ
"كالتحاء الغصن النضير" حتّى تفتى، فكأنه "الهرة تأكل أولادها"، أو كأنه الوالد
الذي "يأكل ما ولد"، ولم ولن ينجو منه أحد⁽⁷⁶⁾.

وقد عدّ ابن المعتز فاعليّة الزمن وتأثيره في فراق الأحبة والإخوان معادلًا
موضوعيًا للموت، هو موت قبل الموت أو حياة بطعم الموت يستعجل المصائر في
الخواطر والضمائر، وفي هذا المعنى يقول⁽⁷⁷⁾:

ليس موتُ الوفاةِ للمرءِ موتٌ إنّما الموتُ فُرقةُ الإخوانِ

وكان الحديث عن القوة التأثيريّة السلبيّة الضاغطة للزمن لافتًا في حديثه عن
الشيب والمشيب حتّى ليكاد يكون ظاهرة مستقلة تستحق الوقوف عليها مطولًا،
وهو وإن لم يكن واحد عصره في تناول هذه الظاهرة، إلا أنّها استغرقت مساحة
خاصة على امتداد ديوانه، ويمكن تتبّع أبرز ملامحها في قصيدته التي مطلعها⁽⁷⁸⁾:

أنكرتُ أسماءَ شيبًا قد علّاني ورأيتني غيرَ ما قد تـراني

فأسماء/ المرأة/ رمز الحياة تنكر على الشاعر ذهاب شبابه وتبدل أحواله،
وعلاوة هذا التحوّل والتبدّل هو المشيب، فيجيبها قائلاً:

إنّ كفَّ الدهرِ يا أمّ عمرو فاعلمي قد قصّرت من عنائي

ولقد أبقتُ يدُ الدهرِ مِنّي منتهى الحمدِ، وحسبُ الأمانِ

إنّيه الدهر يقصّر ما طال، وما دام الشاعر لا يملك له دفعًا ولا منعًا فلا
مناص من أن يقبل بما قدّر له، وينعى أمانيه التي لم تتحقّق، ويدعو على أسماء بأن
تلقى المال نفسه كي لا تظلّ تذكّره بما فاتته من زمن يدرك تمامًا أنه لن يعود:

ولك العقبى بشيبٍ كشيبي يشتهي لي من شبابٍ عدائي

لكن حمده وتقبله قناع سرعان ما يسقط، وإذا بالنفس تكشف عن محنة حقيقية وقلق عميق، يقف الشاعر أمامه مأزومًا متسائلًا بحيرة عن سرّ ذهاب شبابه المأسوف عليه:

لم ينعي الشباب مشيبٌ لم يــــزُدْ إذ زارني لأواني
خلته في مفريقي خطّ صادٍ قارنّتها آخرّ في مكان

ويتشكل في وعي الشاعر أن الشيب -الذي أضحي كالعنكبوت في عيون الحسان بعد أن كان رمز الرجولة والقوة والحيوية ومهوى قلوب الأوانس- ما هو إلا نذير موت، فيعترف أمامها بالفجعية لهذا التحوّل والتبدّل:

طار عن رأسي غُداً شبابٍ كان قيّد العيون الحسانِ
صرْتُ رمي ســــهام المنايا وقــــذاةً في عيون الغواني

لكنّه مع كلّ هذا الوعي يرفض أن يلبس لبوس الحكمة والوقار لتعزية النفس بما آلت إليه، ويظلّ مرهقًا للحظة وصفها بأنّها ظلّ الزمان:

ولقد أختلّ منهنّ ظبيًا بشبابٍ كان ظلّ الزمانِ
ذاك إذ غصني نضيرٌ وريقٌ ما تخطّته العيون الرواني

نعم فشبابه ليس أكثر من ظلّ عابر قبُض قبضًا سريعًا، وتسربّ كالماء من بين يديه، لكنّه -مع ذلك- يأبى أن يغادره، ففيه تسكن النفس وتستظلّ من هجير الشيخوخة، فجاءت خاتمة قصيدته مرهونة باللحظة التي تأبى أن تغادره⁽⁷⁹⁾.

إلا أنه في مواضع أخرى يستسلم لأثر الزمن فيه، ويعي أن الخضاب الذي يحاول التّجَمُّل به لن يخفي حقيقة أن الزمن قد عدى عليه، وأنه بات إلى الموت أقرب منه إلى الحياة⁽⁸⁰⁾:

وظلّ يسلبني شبي الخضاب فلم
وأفنيّت بهجّة للعيش ماضية
أخدغ به لحظات الأتس الخرد
وكلّ شيء في الدنيا إلى أمد
والشيب مصباح وعظّ لست أحمده
أسري به في طريق الحق والرشد

ومع قناعة ابن المعتزّ بفاعليّة تأثير الدهر إلّا أنّّه في إحدى مقطوعاته الشعرية يحاول أن يسبقه ليكون له خيار التأثير في إنفاق ماله كما يحلو له⁽⁸¹⁾:

إذا لم أجد بالمال جاذب الدهر
على وارثي والكفّ في قبرها صفر
لكنّيه - وإن أنفق المال باختياره - لم يكن له خيار التأثير في عاقبة ذلك، فحين قلّ ماله قلّ مدحه، وانفضّ الإخوان من حوله، وعندما يعي ذلك يدرك أن لا مفرّ من الاعتراف بأن الدهر يفرّق ما تجمّع، وينقضّ ما أبرم، ويهدم ما بُني، وبهذا تبقى للزمن فاعليّة التأثير المطلقة، ولا يملك الإنسان أن يغادر موقعه بوصفه متأثراً، ويقلب المعادلة لصالحه إلّا في خيالاته وأوهامه.

ومن ذا الذي ينجو من الدهر سالماً وإن سرّه حيناً ومَدّ له العمر⁽⁸²⁾

أما المكان فلم يكن تأثير الزمن فيه أخفّ وطأة من تأثيره في الإنسان، فكم من دار عرفها الشاعر ربّي وربوعا، "أساء بها الزمان صنيعا"⁽⁸³⁾ وصارت أطلالا؛ تأسر حاضره في ماضيه، وتغدو رمزاً لجدل آتٍ ومستقبليّ مع الزمن أسوة بما نجده عند الشعراء الجاهليّين⁽⁸⁴⁾.

وأكثر ما يظهر ألم الشاعر في هذا السياق عند وصفه لمآل بغداد؛ دار ملك أجداده الأوائل من بني العباس، فالمدينة التي كانت "تنضح المسك إذا هب عليها نسيم" وريبعها "إذا نور وشي أو جوهر منظوم"، أصبحت ركاياها "أكاليل في

بعوض فيها تحوم"، وأمست "جوّها دخان وماؤها يجموم"، فيقف أمام أطلالها متألمًا حائرًا يتساءل بحزن⁽⁸⁵⁾:

كيف قد أقفرتُ وحاربها الدهـ	رُ وغنى الجنانَ فيها البـومُ
فهي هاتيك أصبحتَ يتناجى	بالتشكي خراجها المهـدومُ
نحن كنّا سكنها فانقضى ذا	ك وبنا وأيّ شيءٍ يـدومُ

إنّ هذا الانكسار الذي يشعر به ابن المعتز يمتزج فيه خسارة المكان بالزمان، فبغداد التي خُربت هي في الحقيقة صورة محسوسة لماضي لن يعود وحاضر مستعص على الامتلاك ومستقبل سيفنى⁽⁸⁶⁾، ممّا يعزّز رهبته من الزمن وإحساسه بعدم القدرة على إيقاف حركته الدائبة من الوجود إلى العدم⁽⁸⁷⁾ أو الحضور في ديمومته، فينكفى على نفسه حسيّرًا كسيّرًا ينعى مصيره الإنسانيّ، وقد أدرك أيّ شرك هو الزمن، وأيّ قوة تحيل ولا يُحال عليها.

3-2 بين الشكوى والتصبر:

في الحوار المشهور بين الوزيرين ابن الحسن وابن الفرات بعد وفاة المكتفي في شأن البيعة لابن المعتز، تتكشف جوانب أخرى من معاناة ابن المعتز عدا ما تقدّم؛ إذ قال ابن الفرات مستنكرًا على جليسه ميله لمبايعة ابن المعتز: "وأيّ شيء تعمل برجل فاضل متأدب قد تحنك وتدرّب، وعرف الأعمال ومعاملات السواد ومواقع الرعية في الأموال، وخبر المكاييل والأوزان وأسعار المأكولات والمستعمالات ومجاري الأمور والمتصرفات، وحاسب وكلاءه ما تولوه وضايقتهم وناقشهم، وعرف من خياناتهم واقتطاعاتهم أسباب الخيانة والاقتطاع التي يدخل فيها غيرهم"، ويذكره ما كان من أمره معهما: "كان يكاذبك في حوائجه فلا تقضيها، ويسألك في معاملاته

فلا تمضيها، وعمّالك يصفعون وكلاءه فلا تنكر، ويتوسّل في الوصول إليك فلا تأذن، وكم رقعة جاءتك منه بنثر ونظم فلم تعباً بها ولا أحبته إلى مراده، وكم جاءني منه ما هذه سبيله فلم أراع فيه وصولاً إلى ما يريد إيصاله إليه⁽⁸⁸⁾.

إن رجلاً خبر كل ما مرّ به ابن المعتز من تجارب مريرة لا يمكن أن يقف من الزمن موقفاً إيجابياً فكيف إذا كان شاعراً وقاد الذهن مرهف الإحساس؟

لقد خبر ابن المعتز الناس وجرحهم، وكانت تجاربه سلبية كشفت عن جوانب مظلمة من الحياة والبشر، وشعر بالظلم والغبن والغدر؛ من الإخوان والأعداء ومن الأقارب والأباعد سواء بسواء، ولام الزمن على كل ما مر به، وملاً صفحات ديوانه بالشكوى من هذا الزمن، متحسراً على ما فاتته؛ صرخة مدوية محتجة غالباً⁽⁸⁹⁾:

يا دهرُ حسبك قد أكثرت فجعاتي شغلت أيام عمري بالمصيبات
ملأت الحـاظ عيني كلّها حزنًا فأين لهوي وأحبابي ولذاتي
وأنت خافطة لائمة أحياناً⁽⁹⁰⁾:

أيا دهرُ ما ترعى علينا ولا تُبقي فرفقا بنا بل ما أرى لك من رفقي

وقد تراوحت الشكوى في قصائده بين شكوى من الدهر عامّة كما سبقت الإشارة قبل قليل، أو بسبب تجربة خاصّة، لكنّها تعود في مجملها إلى التباين بين طموحه وواقعه، وعجزه عن تحقيق آماله وأحلامه، وثمة روافد متعددة تصبّ في هذا المنبع، ومنها: موت الأحبة والأهل والإخوة، وفناء أمكنتهم برحيلهم، وهي أقواها⁽⁹¹⁾:

إخوة لي غدر الدهر بهم خلفوني بضميرٍ موجع
قسم الدهر فؤادي بينهم ففؤادي معهم ليس معي

فرغ الدهر لهم من شُغله وحوائم بيدٍ لم تُدفع
ولقد عافاهم ثم سرى لهم والدهر جُم الخدع

أو غدر الأصحاب والأقارب وتخليهم⁽⁹²⁾:

بنو العم لا بل هم بنو العم والأذى وأعوأ دهرٍ إن تظلمت من دهرٍ
وتنم شكواه في مختلف القصائد عن ضعف وإحساس بألم عميق، وهو
إحساس وإن ارتبط بتجاربه الخاصة، إلا أنه يعدّ حلقة من حلقات معاناة الإنسان
بسبب التطور والتحضّر الذي وصل إليه المجتمع العباسي من عصره⁽⁹³⁾؛ إذ كلما
زاد الرفاه زادت معه رغبات الإنسان وعلا طموحه وجمحت أحلامه، لكن الزمن لها
بالمِرصاد؛ يبطش بها بيده الغادرة، ويبتلعها ابتلاع الوحش لفريسته، فيقف أمامه
عاجزاً عن المقاومة من أجلها، ولا يملك بعد ذلك إلا الشكوى حائرًا ماذا عساه
ينعى⁽⁹⁴⁾:

فما أقولُ لدهرٍ شتّت يده شملي وأخلى من الأحباب أوطاني
وما أتاني بنعمى ظلت لا يسها إلا انتنى مسرعًا عنها فعزّاني

ومن اللافت للنظر أن الشاعر في شكواه يتحدث عن الزمن (الدهر
خاصة) بصورة فضفاضة تحيل على مجمل تجربته السياسية والاجتماعية والإنسانية
أكثر ممّا تحيل على نزعة قدرية تتحكّم في المصائر، فالشاعر على كثرة شكواه من
نوائب الزمن ومصائبه وحوادثه، إلا أنه - كما يبدو في الكثير من القصائد - مسلم
صحيح العقيدة، مسلم بقضاء الله وقدره⁽⁹⁵⁾:

مسّهّد في ظلام الليل أوّاه عضّته للدهر أنيابٌ وأفواه
إن كان يخطئ سعيّ ما أفدّره فليس يخطئ ما قدّ الله

ولم يكتفِ ابن المعتز بالشكوى من الزمن؛ إذ نراه كثيراً ما يدعو عليه، ولا سيما إن نال الموت من عزيز لديه، ومن ذلك قوله⁽⁹⁶⁾:

آه من حادثِ الزمانِ أشلَّ اللـهُ عن أنفسي الكرامِ يديهِ

وقد منحت هذه التجارب المريعة المتعاقبة الشاعر خبرة وحنكة في مواجهة الزمن، جعلته -ربما بعد طول شكوى وتبرّم- يؤمن أنّ مواجهة الدهر لا تكون إلا بالتّصبر والتّجلّد، وقد لجأ الشاعر إلى استخدام آيتين في هذا السياق؛ أولاهما مخاطبة نفسه متصلة به، فينصّحها ويرشدها، مثل قوله⁽⁹⁷⁾:

يا نفسُ صبرا صبرا أما عرفتِ الدهرا

والثانية إحالة فعل النصّح والإرشاد عليها لتخاطبه قائلة⁽⁹⁸⁾:

هو الدهرُ قد جرّبته وعرفته فصبراً على مكروهه وتجلّدا

وما الناس إلا سابق ثمّ لاحق وأبق موتٍ سوف يأخذه غدا

ولعلّ مرّد ذلك إلى صراع خفيّ يعاني منه ابن المعتز، مما يمكن معه القول إنّ التصبر والتجلّد لم يصدرا عن قناعة حقيقية راسخة، بل اضطر إلى تبني هذا الموقف بعد أن أيقن أنّ مواجهة الزمن ومغالبة ضرب من المستحيل، ومما يؤيد ذلك قوله⁽⁹⁹⁾:

خليلي إنّ الدهر ما تريانه فصبراً وإلاّ أيّ شيءٍ سوى الصبرِ

3-3 بين الاستسلام والرجاء:

ثمّة انزياح ملموس في موقف ابن المعتز من التصبر والتجلّد إلى الاستسلام والإقرار بالهزيمة في بعض قصائده، وقد عبّر عن ذلك في قوله⁽¹⁰⁰⁾:

يا نفسُ صبراً للزمانِ وربيه فهو المليء بما كرهتِ فسلمي

فالشاعر قد أنهكت قواه أمام زمن غادر مخادع مراوغ باطش إلى غير ذلك من صفات تحيل على ضدها عند خليفة اليوم والليلة⁽¹⁰¹⁾، لا يملك أمام جبروته دفعا⁽¹⁰²⁾:

أرى الدهر يقضي كيف شاء محكّما ولا يملك الإنسان بسطا ولا قبضا

وهنا ينقل الشاعر معركته مع الزمن من إطارها الخاص به إلى التجربة الإنسانية عامة، ولعل إدراكه لهذه الحقيقة يعزّيه قليلا؛ إذ نراه يدخل في حالة من السكون يتحوّل معه الإحساس بالزمن إلى تجربة كونية تستحق التأمل، فتتجلّى الحكمة في أفق شعره لتردّد الألسنة معها⁽¹⁰³⁾:

إبط ما شئت وسر سيرا رويدا إن سير الدهر بالمرء سريع

لكن وعيه بهذه الحقيقة، ومآسي حياته المتلاحقة، وفقده الأهل والإخوان، لم يمنعه من أن يرجو الزمن ألا يفجعه بموت الخليفة المعتضد بالله مثلا⁽¹⁰⁴⁾:

تغافل لنا يا دهر عن نفس أحمد فما بعده للملك حصن ولا ملجا

ومع كل محن الفقد والسلب التي مُني بها ابن المعتز، ومع اعترافه بالهزيمة وفاعلية الزمن فيه واستسلامه، إلا أننا نجده أحيانا معلقا بحبل الرجاء بأن يأتي يوم يعم فيه العدل وتتوقف معاناته، وينصفه الزمن بعد ظلم وجور⁽¹⁰⁵⁾:

رب أمر تتقييه جرّ أمرا ترجيه

خفي المحبوب منه وبدا المكروه فيه

فاترك الدهر وسدّه مه إلى عدل يليه

أو تتغيّر الأحوال من السلب إلى الإيجاب⁽¹⁰⁶⁾:

ألا ربَّ حالٍ قد تحوَّلَ بؤسُها وما الدهرُ إلا نَبْوةٌ وسكونُ
وقد يعقبُ المكروهُ يومًا محبةً كلُّ شديدٍ مرّةً يهونُ

3-4 بين التعالي والهروب:

من الظواهر الملموسة في موقف ابن المعتز من الزمن -على قلّتها- ظاهرة التعالي أمام نوائبه ومصائبه ومحاولة تجاوزه تأثيره السلبي على مختلف جوانب حياته، وإن كانت كلمة التعالي تحيل في دلالتها على خطّ عموديّ نحو الأعلى، إلا أنّه ربّما يحمل في السياقات التي ورد فيها معنى الانكفاء والاستدارة إلى العالم الداخليّ بحثًا عن تعزية للنفس وجبر للخاطر أكثر من معنى التسامي، فابن المعتز -سليل الأسرة العباسيّة المغرقة في عروبتها ومجدها التي يعزّ عليها أن يُرى أسيرًا لدهرٍ لا يريش ولا يبرى كما يصف نفسه في إحدى قصائده⁽¹⁰⁷⁾ - يرى نفسه حرًّا كريمًا والدهر نذلًا لثيماً في محاولة لرد الاعتبار ولو قليلاً لذاته، وفي مثل هذا المعنى يقول⁽¹⁰⁸⁾:

يا دهرُ لو كنتَ حرًّا لما أسأتَ بحُرِّ

وفي إحدى مقطوعاته في التجلّ يقول⁽¹⁰⁹⁾:

لجَّ الزمانُ فليسَ يُعتَبُ صرْفُهُ إنّ الزمانَ على الكريمِ لثيّم

ومع كلّ ما أذاقه الزمن من ويلات ونكبات إلا أنه يعلن صفحه وتجاوزه عنه كحاكم أمر ناهٍ يعفو عن مذنب⁽¹¹⁰⁾:

وكمّ عثرةٌ للدهرِ من قبلِ هذه تجاوَزَ عنها صبرُنا المتجاوِزُ
وسدَّ مكانَ الفقدِ منّا موشحٌ وفاءٌ لميراثِ المحامدِ حائِزُ

لكنه في بعض المواقف يلجأ إلى الهروب من مواجهة الدهر وحادثاته الموجهة إلى عالم يصطنعه خياله؛ يعيش فيه لحظته الراهنة كما يحلو له بعيداً عن عين الدهر المتربّصة، ولا سيّما في خمرياته⁽¹¹¹⁾:

فالرزايا ليست تداوى بشيء كمدامةٍ وقينةٍ وصديقٍ

فتأثير الخمرة في العقل تنسيه أوجاعه وتجعله رهين لحظته الحاضرة؛ لحظة يعيشها كيفما اتفق في سكون خارج عن حركة الزمن، فلا ماضٍ يأسى عليه ولا مستقبل يخاف منه، وقد عبّر عن هذه الفلسفة - التي تدعو إلى اغتنام اللحظة الحاضرة قبل أن يبددها الزمن - في قوله⁽¹¹²⁾:

عاقِرْ عُقَارَكَ واصطَبِخْ وامزجْ سرورك بالفرخ
وانعمْ بيومك إثمًا عيشُ الفتى يومَ اصطَبِخْ

إن لجوء ابن المعتز إلى هاتين الآليتين (التعالي والهروب) - كما يبدو - ليس أكثر من محاولة للوصول إلى حالة من الاتّيزان تجعله يقف عند نقطة في منتصف المسافة بينه وبين الزمن؛ تخلّصه من الكثير من المشاعر السلبية تجاهه، وتمنحه المزيد من القدرة على الصمود والتحمّل، لا المواجهة والمقاومة.

الخاتمة:

قد يلتقي موقف ابن المعتز من الزمن - ولا سيّما في السياقات التي وردت فيها كلمة الدهر - مع مواقف الشعراء الجاهليّين بوصفه خطرًا يهدّد الإنسان وعاملاً مهدّداً للبقاء والحياة معاً⁽¹¹³⁾، إلا أن ابن المعتز لا ينطلق من رؤية عدميّة تحيل على قدرة الإفناء والإهلاك كما كان الجاهليّون يعتقدون، إنّما تنبع من تجربته السياسيّة والاجتماعيّة والإنسانيّة أكثر ممّا تحيل على نزعة قدريّة تتحكّم في المصائر.

وقد وقف ابن المعتز في مواجهة الزمن؛ يغالبه فيُغلب كثيراً ويغلب -أو يتصور أنه يغلب- في بعض الأحيان، كما انشغل بتصوير فاعليّة تأثير الزمن في الإنسان والمكان.

ورصدت هذه الدراسة ردود أفعاله تجاه كل ذلك؛ تلك التي تراوحت بين الشكوى والتصبر والاستسلام والرجاء والتعالي والهروب، وإن غلبت الشكوى عليها، وما ذلك إلا لأننا أمام رجل حر كريم أخنى عليه الزمن، فأصرّ على تعلّقه بالأمل بأن يُنصف يوماً ما⁽¹¹⁴⁾:

وللدهر سرٌّ سوف يظهر مرةً وللناس وزنٌ جائزٌ سوف يعدلُ
لكنّ المؤمل ذهب، وبقي المؤمل وعدًا ينتظره كل من يشعر بظلم الزمن.

الهوامش :

- (1) التوحيدّي، أبو حيان، الهوامل والشوامل، تحقيق: أحمد أمين والسيد صقر، القاهرة، 1951، ص25
- (2) أدونيس، أحمد علي سعيد، زمان الشعر، ط3، بيروت: دار العودة، 1983
- (3) الخياط، جلال، الشعر والزمن، العراق: منشورات وزارة الإعلام، 1975
- (4) الخضّور، جمال الدين، قمصان الزمن، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2000
- (5) الصايغ، عبد الإله، الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام، العراق: دار الرشيد للنشر، 1983
- (6) نصير، أمل، الزمن في شعر الشعراء العذريين في العصر الأموي، مجلة دراسات، عمّان: الجامعة الأردنية، مج 29، ع 2، 2002
- (7) دكاش، نضال الأميوني، ظاهرة الزمن في الشعر العربي القديم، بيروت: دار الحداثة للطباعة والنشر، 2006
- (8) خليل، لؤي، الدهر في الشعر الأندلسي، الكويت: حوليات جامعة الكويت، حوليّة 26، رسالة 239، 2005
- (9) المسديّ، عبد السلام، شعرنا العربي المعاصر والزمن المضاد، مجلة فصول، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مج16، ع1، 1997، ص 10-27

- (10) قَطُّوس، بسام، جدلية الزمن: دراسة نقدية في قصيدة أحمد عبد المعطي حجازي، الأردن: مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، مج6، ع2، 1991، ص11-31. وللباحث نفسه دراسة أخرى في هذا السياق بعنوان: الزمان والمكان في شعر محمود درويش "أحد عشر كوكبا" / دراسة نقدية، إريد: مجلة أبحاث اليرموك، مج14، ع1، 1996، ص47-84
- (11) الأوسى، سلام كاظم، الزمن في الشعر العراقي المعاصر (مرحلة الرواد: السيّاب، البياتي، بلند الحيدري، نازك الملائكة)، بغداد: دار المدينة الفاضلة، 2012
- (12) ابن المعتز، عبد الله بن مُجَد، ديوان أشعار الأمير أبي العباس، دراسة وتحقيق: مُجَد بديع شريف، 2ج، القاهرة: دار المعارف، 1977 (سيشار إليه في الحواشي اللاحقة اختصاراً بالديوان)
- (13) انظر مثلاً (مادة زمن) في: الجوهرى، إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: مُجَد تامر وأنس الشامي وزكريا جابر، دار الحديث، 1430هـ/ 2009م، ابن فارس، أحمد بن فارس الفريسي، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، 1399هـ/ 1979م، الفيروزآبادي، مجد الدين مُجَد بن يعقوب، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث، بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، 1426هـ/ 2005م، ابن منظور، جمال الدين، لسان العرب، بيروت: دار صادر، (د.ت)
- (14) منهم على سبيل المثال الزبيدي في تاج العروس. انظر: الزبيدي، تاج العروس، ج11، ص346
- (15) ابن منظور، مج3، ص199
- (16) العسكري، أبو هلال، الفروق في اللغة، تحقيق: مُجَد إبراهيم سليم، القاهرة: دار العلم والثقافة، 1418هـ/ 1997م، ص270
- (17) السابق.
- (18) السابق.
- (19) الطبري، مُجَد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: مُجَد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، 1960، ج1، ص9
- (20) ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل، المخصص، بيروت: دار الفكر، 1978، ج2، ص629
- (21) الأزهرى، مُجَد بن أحمد، تهذيب اللغة، تحقيق: مُجَد عبد المنعم خفاجي ومُجَد فرج العقدة، القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1964، ج6، ص192
- (22) الكفوي، أبو البقاء أيوب، الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، تحقيق: عدنان درويش ومُجَد المصري، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1992، ص444
- (23) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج2، ص305-306
- (24) الأزهرى، تهذيب اللغة، ج6، ص194
- (25) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج2، ص306-307

- (26) انظر: الديوان، ج2، ص58
- (27) السابق، ص301
- (28) الديوان، ج2، ص427
- (29) السابق، ج1، ص337
- (30) رفعت كلمة (بنو) على تقدير: (زمان كان بنو حرب)، وفي الديوان (ممسكوا)، والصواب ما أثبت.
- (31) الديوان، ج2، ص103
- (32) السابق، ص338
- (33) السابق، ص364
- (34) السابق، ج1، ص487
- (35) السابق، ج1، ص520
- (36) السابق، ج2، ص250
- (37) السابق، ص128
- (38) الزبيدي، تاج العروس، ج 11، ص347
- (39) الديوان، ج2، ص612
- (40) السابق، ص379
- (41) عن أثر الوعي الجمعي والمخيال في تشكيل المعرفة، انظر: الخضور، جمال الدين، زمن النص، ط1، دمشق: دار الحصاد للنشر والتوزيع، 1995، ص19-21
- (42) انظر مثلاً: باباعمي، محمد بن موسى، مفهوم الزمن في القرآن الكريم، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2000، والطريطر، حميد، قضية الزمن من خلال القرآن الكريم، د1، دمشق: دار وحي القلم، 2004، وعوض، محمود يوسف، أسماء الزمن في القرآن الكريم (دراسة دلالية)، رسالة ماجستير غير منشورة، فلسطين: جامعة النجاح الوطنية، 2009
- (43) انظر: الطريطر، قضية الزمن، ص212-213
- (44) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، بيروت: مطبعة الهندية، 1980-1981، ج 4/1825
- (45) السابق، ج 5/2286، وقد أفاض كثيرون في تفسير هذين الحديثين. انظر مثلاً: العسقلاني، ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج8، ص565 و575 و584-585
- (46) للمزيد عن الزمن في فكر الفلاسفة المسلمين بصورة عامة، انظر مثلاً: العاني، إبراهيم، الزمان في الفكر الإسلامي، ط1، بيروت: دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع والمؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1413هـ / 1993م

- (47) الجابري، مُجدّ عابد، الزمان بين المتكلمين والنحاة والمؤرخين، على الرابط الآتي:
http://www.aleqt.com/2009/04/22/article_219495.html
- (48) انظر: هوتسما، م.ت. وآخرون، موجز دائرة المعارف الإسلامية، تحقيق: إبراهيم خورشيد وآخرون، ط1، الإمارات: مركز الشارقة للإبداع الفكري، 1418هـ/ 1998م، ص5304
- (49) السابق، ص5303
- (50) الديوان، ج1، ص267
- (51) الديوان، ج2، ص74-75
- (52) السابق، ص585
- (53) السابق، ص327
- (54) السابق، ص401
- (55) السابق، ص330
- (56) تليمة، عبد المنعم، مقدمة في نظرية الأدب، ط3، بيروت: دار العودة، 1983، ص127
- (57) للمزيد عن تمثّلات هذا الصراع في الشعر العباسي، انظر: جديتاوي، هيثم، البناء الدرامي في القصيدة العباسية (من بشار بن برد إلى المتنبي)، الأردن: مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية، 2009، ص63-163
- (58) للمزيد عن ماهية الزمان الوجودي وإشكاليّاته، انظر: بدوي، عبد الرحمن، الزمان الوجودي، ط3، بيروت: دار الثقافة، 1973
- (59) انظر تفاصيل بحثه في: ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن مُجدّ، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تحقيق: سيد كسروي حسن، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1424هـ/ 2003م، ج5، ص4-11
- (60) الديوان، ج2، ص348
- (61) السابق، ص349-350
- (62) يلتقي هذا التصور مع نظرية فيزيائية معاصرة لتفسير ماهية الزمن تذهب إلى تأكيد أن العالم الماديّ ينحو نحو التفكّك، وفسرها روي بورتير بقوله: "أي إن مقدار الطاقة المستخدمة في الكون يميل إلى التناقص، وكل من الانتحاء والتطور يبيّنان أن الزمان له اتجاه محدد، وأنه أشبه بالسهم". ورتير، روي، تاريخ الزمان، من كتاب فكرة الزمان عبر التاريخ، ص5-45، ترجمة، فؤاد كامل، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1992ع، ص36-37
- (63) الديوان، ج2، ص349-350
- (64) السابق، ص74
- (65) السابق، ج1، ص279
- (66) السابق، ص581
- (67) السابق، ص286

- (68) السابق، ص 299
- (69) السابق، ص 104
- (70) السابق، ص 229
- (71) السابق، ص 58
- (72) السابق، ج 2، ص 94
- (73) السابق، ص 87
- (74) السابق، ج 2، ص 336
- (75) مايهوف، هانز، الزمن في الأدب، ترجمة: أسعد رزوق، القاهرة: مؤسسة سجل العرب، 1972، ص 7
- (76) وردت هذه المعاني في عدد من القصائد، ومنها قصيدته الرائية في رثاء علي بن يحيى المنجم. انظر: الديوان، ج 2، ص 338-340، ومقطوعة في ذم الدهر، ج 2، 401-402، ولاميته في الزهد، ج 2، ص 412-413، وغيرها كثير
- (77) السابق، ص 421
- (78) السابق، ج 2، ص 421-422
- (79) يتحدث غراهام كولبير عن قدرة الفن على سحب الحياة من تدفق الزمن وتحميد البرهة العابرة في الصورة المبدعة؛ أي تجميد الزمن. انظر: الحسين، قصي، تشظي السكون في العمل الفني، بيروت: مجلة الفكر العربي، 1998، ع 92، ص 208
- (80) السابق، ص 391
- (81) السابق، ج 1، ص 266
- (82) السابق، 402
- (83) السابق، 268
- (84) عن العلاقة بين الطلل وتحولات الزمن، انظر: يوسف، حسني عبد الجليل، الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1988، ص 135
- (85) الديوان، ج 1، ص 288
- (86) للمزيد عن الصيغة الظرفية للزمن، انظر: ديفيس، بول، العوالم الأخرى، ترجمة: حاتم النجدي، ط 2، دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، 1994، ص 205
- (87) انظر ما كتبه سمير الحاج شاهين حول هذه القضية في: شاهين، سمير الحاج، لحظة الأبدية، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1، 1980، ص 6
- (88) الصابي، أبو الحسن الهلال بن الحسن، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، مكتبة الأعيان، د.ت، ص 131

- (89) الديوان، ج2، ص327
- (90) السابق، ص351
- (91) السابق، ص349
- (92) السابق، ج1، ص254
- (93) انظر، بدوي، الزمان الوجودي، ص159
- (94) الديوان، ج2، ص293
- (95) السابق، ص422
- (96) السابق، ص375
- (97) السابق، ص65
- (98) السابق، ص394
- (99) السابق، ص354
- (100) السابق، ص362
- (101) يلقب ابن المعتز بخليفة اليوم واللييلة لأن البيعة لم تتم له؛ إذ ما كاد بعض الوزراء المقربون له يبايعونه، حتى ظفر به ابن الفرات قبل أن يدخل القصر فقتله.
- (102) الديوان، ج2، ص75
- (103) السابق، ص270
- (104) السابق، ج1، ص466
- (105) السابق، ج2، ص423
- (106) السابق، ج1، ص520
- (107) السابق، ج2، ص67
- (108) السابق، ص400
- (109) السابق، ص418
- (110) السابق، ص345
- (111) السابق، ص287
- (112) السابق، ص238
- (113) انظر: العشماوي، مُجد زكي، موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي، بيروت: دار النهضة العربية، 1981، ص194
- (114) الديوان، ج2، ص282